# الجاحظ (١)

## — تمهيد —

—*—

هل عليَّ من حرج وقد قطعنا السنة الاولى واستقبلنا السنة الثانية بأحسن ما نستقبل به دراسة فنٍّ يروّض العقل و يهذّب العاطفة و يصفّي الذوق ويرقّق الشعور . هل عليَّ من حرج ان فكرت في نتائج اول عمل نبت في أفياء مدرستنا هذه قبل ان أشرع في العمل الثاني وهو الكلام على الجاحظ .

لقد فرغت من كتابي (المتنبي) ودفعته الى الجمهور وربما لم يخطر ببالي طبعه وانما طبعته عَرَضًا على غير عزم فلما أهديته الى طائفة من الاخوان وأهل الفضل في الشام ولبنان وفلسطين ومصر والعراق والحجاز لم يقع في خلدي أن أتوقع الآثار التي تركها في آفاق الأدباء سواء أكانت هذه الآثار حسنة أم كانت غير حسنة ، اما الزبد فيذهب جفاء واما ما ينفع الناس فيمكث في الارض .

ولكني لم أتملص من النظر في هذه الآثار ولست ارى حاجة الى إزعاجكم بالكلام الذي تكلمه الفضلاء على هذا الكتاب وانما أحب ان أشير الى هذا الكلام إشارة لانه يفصح عن روح العصر فقد أجمع الذين عرضوا على التمييز كتابي على انه قد أدخل على الأدب اساليب حديثة .

لا يسعني في مثل هذا المقام الا ان أشكر لهذا الفريق المستنير حسن ظنه وجميل اعتقاده ، فلئن دلت شهادته على مبلغ فضله فلقد دلّت على مبلغ كرم أخلاقه .

---

(١) سلسلة محاضرات الاستاذ السيد شفيق جبري احد اعضاء المجمع العلمي العربي التي شرع في المحاضرة بها في كلية الأدب في دمشق من تشرين الثاني سنة ١٩٣٠ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الحاجة الى الأساليب الحديثة في الأدب مشتدة في عصرنا هذا فكأنما الأسماع قد مجّت ماتردد من سنين طويلة وكأنما القلوب قد لفظت ما تمضغ .

على اننا لو نظرنا في أدب العرب لتبين لنا ان النفوس في كل عصر من عصور هذا الأدب كانت تتطلع الى الاساليب الجديدة سواء أكانت هذه الأساليب في اللغة نفسها ام في الشعر ام في النقد الادبي ام في الانشاء ام في غير ذلك من مذاهب الفن فاللغة ذاتها لم تكن الا سلسلة تتنقل حلقاتها في كل عصر من العصور من شكل الى شكل وكذلك الشعر والنقد واضرابهما ، وقد يطول بنا الكلام على هذه الأطوار كلها وانما أضرب لكم أمثالاً يسيرة على سبيل التوضيح .

فلننتقل الى العصر الجاهلي ، كانوا يقولون : أسيلة الخد ، حتى قال امرؤ القيس : أسيلة مجرى الدمع ، وكانوا يقولون : تامة القامة وطويلة القامة واشباه هذا وجيداء وتامة العنق حتى قال : بعيدة مهوى القرط . وكانوا يقولون في الفرس السابق يلحق الغزال ، يسبق الظلام وامثال هذا حتى قال : بمنجرد قيد الاوابد هيكل .

من هذا يتبين لكم ولو على سبيل الايجاز ان العصر الجاهلي لم يخل من المجددين .

واذا انحدرنا الى صدر الاسلام تحقق عندنا ان النفوس قد تشوّفت الى أسلوب حديث في الشعر غير الأسلوب الذي كان يتبعه شعراء الجاهلية وهذا التشوف يدلنا عى طور جديد فلما أنشد جرير قول عمر بن ابي ربيعة :

سائلا الربع بالبلي وقولا هجت شوقاً لي الغداة طويلا
اين حي حلوك اذ انت محفوف بهم آهل اراك جميلا
قال ساروا فأمعنوا فاستقلوا وبرغمي لو استطعت رحيلا
سئمونا وما سئمنا مقاماً واحبوا دماثة وسهولا

قال : ان هذا الذي كنا ندور عليه فأخطأناه وأصابه هذا القرشي . فجرير وامثاله كانوا يريدون ان يسمعوا اشياء لم تتعودها اسماعهم .

ولم يخل العصر العباسي من المجددين ومن الراغبين في التجديد ، ولما سئل الاصمعي عن بشار ومروان بن ابي حفصة ايهما أشعر ، قال : بشار ، فسئل عن السبب في ذلك فقال : لان مروان سلك طريقاً كثر من يسلكه فلم يلحق بمن تقدمه وشركه فيه من كان

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

في عصره ، و بشار سلك طريقاً لم يسلك وأحسن فيه وتفرّد به وهو اكثر تصرفاً وفنون شعر وأغزر وأوسع بديعاً ، ومروان لم يتجاوز مذهب الاوائل .

فرأي الاصمعي في بشار يشبه رأي جرير في عمر بن ابي ربيعة فالنفوس قد ازداد تطلعها الى نواح جديدة في الشعر .

وكان ابو العباس النامي يقول : كان بقي من الشعر زاوية دخلها المتنبيء .

هذه أمثال قليلة يتجلى لكم من ذكرها ميل النفوس في كل عصر من العصور الى التجديد وليست غايتي ان أتكلم على طبيعة هذا التجديد وعلى عوامله وانما الغاية كما قلت لكم ضرب الامثال حتى تعلموا ان عصورنا الادبية لم تخل من طوابع التجديد . فلسنا نعجب من ان يكون روح عصرنا هذا مطبوعاً باشباه هذه الطوابع .

وكما كان الشعر يتنقل في كل عصر من العصور من طور الى طور فكذلك اللغة فانها لم تثبت على حال من احوالها لا في جاهليتها ولا في اسلاميتها ولا في عباسيتها . فلنضرب مثلاً لذلك ، في الجاهلية اسماء أطلقت على مسميات ثم ماتت هذه الاسماء وولدت بعدها اسماء غيرها عفّت على ماقبلها ، من هذا القبيل ماقاله صاحب الجمهرة[1] :

اسماء الايام في الجاهلية : السبت شِيار ، والاحد اوّل ، والاثنين أهون وأوهد ، والثلاثاء جُبار ، والاربعاء دُبار ، والخميس مؤنس ، والجُمُعة عَرُوبة .

واسماء الشهور في الجاهلية : المؤتمر وهو المحرّم وصفر وهو ناجر وربيع الاول وهو خَوّان وربيع الآخر وهو وَبُصان وجمادى الاولى الحَنين وجمادى الآخرة رُبَّى ورجب الأصم وشعبان عاذِل ورمضان نائِق وشوال وَعِل وذوالقعدة وَرْنَة وذوالحجة بُرَك .

هذا مثل الاسماء التي عاشت ثم ماتت فلنضرب مثلاً للاسماء التي كانت تدل على معنى خاص في عصر من العصور ثم جاء عصر فنقلها عن معناها الاول الى معنى آخر من هذا القبيل ما قاله ابن فارس في فقه اللغة[2] :

كانت العرب في جاهليتها على ارث من ارث آبائهم في لغاتهم وآدابهم ونسائكهم

(١) المزهر : الجزء الاول الصفحة ١٠٨ .

(٢) المزهر : الجزء الاول الصفحة ١٤١ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وقرابينهم ، فلما جاء الله تعالى بالاسلام حالت احوال ونسخت ديانات وابطلت امور ونقلت من اللغة الفاظ عن مواضع الى مواضع أخر بزيادات زيدت وشرائع شرعت وشرائط شرطت فبقي الآخر الاول ، فكان مما جاء في الاسلام ذكر المؤمن والمسلم والكافر والمنافق وان العرب انما عرفت المؤمن من الأمان والايمان وهو التصديق ثم زادت الشريعة شرائط واوصافاً بها سمي المؤمن بالاطلاق مؤمناً ، وكذلك الاسلام والمسلم انما عرفت منه اسلام الشيء ، ثم جاء في الشرع من اوصافه ما جاء ، وكذلك كانت لا تعرف من الكفر الا الغطاء والستر ، فاما المنافق فاسم جاء به الاسلام لقوم ابطنوا غير ما اظهروه وكان الاصل من نافقاء اليربوع ، ولم يعرفوا في الفسق الا قولهم فسقت الرُطَبة اذا خرجت من قشرها ، وجاء الشرع بان الفسق الافحاش في الخروج عن طاعة الله تعالى .

والشواهد على الالفاظ الاسلامية كثيرة فمن شاء التوسع في معرفتها فليرجع الى كتب اللغة .

فأنتم تدركون من هذا ان اللغة سواء أفي الجاهلية ام في الاسلام كانت تنبسط من طور الى طور ، ولو خلصتم الى العصر العباسي لأحطتم علماً بمقادير الألفاظ التي نبتت على جذع اللغة العربية ولم تكن من قبل على هذا الجذع .

اذا عرضنا اللغة في اي عصر من عصورها وجدنا انها يتنازعها حزبان من ابنائها : حزب يحاول ابقاءها على حالتها وحزب يذهب بها مذهباً جديداً .

فالطائفة التي تحرص على ابقاء اللغة في حالة ثابتة دون شيء من التبديل والتغيير تحتج بحجج شتى منها : تعلقها بمذاهب حضارتها وحرصها على تقاليدها واعتناؤها بتلفظ اولادها ورغبتها الغريزية في ان يكون لها لغة مصطفاة ثم اذا تعمقنا في البحث عن الاسباب التي من اجلها يحافظ المحافظون على لغتهم وجدنا ان لكتب الدين تأثيراً عظيماً كالتوراة والقرآن واذا جاوزنا هذه الناحية الى ناحية أبعد تجلت لنا شدة استمساك المحافظين بلغتهم بسبب الكتب الأدبية التي اولعوا بها لجمالها وحسنها فهذه هي اعظم الاسباب التي تدفع المحافظين الى التمسك بمحافظتهم فهم يريدون صفاء اللغة وقد تجمع هذه الاسباب كلها كلمة واحدة وهي ثقافة الفكر .

والحزب الآخر اي الحزب الذي يذهب باللغات مذهباً جديداً فانه يتوسل الى ذلك بثلاث وسائل : اما بقلب اللفظ واما بقلب الصرف والنحو واما بقلب المفردات ، اني

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

لا أشغلكم بالبحث عن تغيير اللفظ وتغيير الصرف والنحو وانما اذكر لكم قلب المفردات فان الامة تكتسب كل يوم اموراً وافكاراً حديثة وانماطاً في الحس والفهم جديدة فلا بدّ لها من اسماء جديدة لمسميات جديدة ، وهذه الاسماء تؤدي في الاغلب الى انقراض كلمات لان الافكار الحديثة والألفاظ الدالة عليها تعفّي على آثار الألفاظ القديمة [1] .

وعلى ذكر الأسماء الجديدة التي تحتاج اليها الامة لاطلاقها على المسميات الجديدة رأيت ان أعرب لكم مقالاً وقع عليه نظري في جريدة الطان من سنين وهذا هو المقال :

اذا طرحتك النوى مطارحها فكتب لك ان تزور باريز استطعت ان تذوق حلاوة الدنيا وتشعر بنضارة الحياة ، ومن محاسن باريز الفتيات العاملات اللواتي ينصرفن في الصباح الى العمل انصراف النحل الى اجتناء الزهر ثم يفرغن من عملهن فيلهون ولا لهو العذادل على ملتف الأغصان . أطلق الفرنسيون على هذه الفتيات اسم ( Midinettes ) فالاسم مشتق من كلمة ( Midi ) ومعناها الظهيرة لانهن يفلتن في الظهيرة كما تفلت الطيور من الأقفاص فيخرجن من المخازن والمعامل فيسرحن كما يسرح سرب الها ، فاذا سمعت أحاديثهن على الطريق فكأنك قد سمعت دويّ النحل فتراهن ذاهبات من الاوبرا الى ساحة (الفاندوم) ومن ( المادلين ) الى ( الشانزاليزه ) وترى الشوارع والمطاعم والمقاهي والملاهي مكتظة بهن فاذا رأيتهن رأيت الألوان على مختلفها وعرفت كيف تكون الابتسامات على الثغور وكيف تكون التخيلات في الخواطر ، شعر قصير وشباب ناعم وقامة رشيقة وخلقة فتانة ، فهن نضارة باريز وغضارتها ولولاهن لما كان لباريز رونق وبهجة فكلمة ( Midinette ) العذبة ترد بطبيعتها على شق القلم وطرف اللسان ، ادمجها كبار الكتاب في رواياتهم فتأصلت في اللغة الا انها عرضت يوم الخميس الماضي على قاعة باريز الفتانة اي على الاكاديمية الفرنسية وليدة ( ريشوليو ) وكان لها امل ان تحتفي بها الاكاديمية لعذوبتها ونعومة صباها ولكن الاكاديمية لم تمهد لها سبيلاً في معجمها فقطبت في وجهها واطرحتها .

وقد أسف صاحب المقال الأسف كله على اطراح هذه الكلمة مبيناً انه ليس من

---

(١) رأي الاستاذ ( دارمستتر ) صاحب كتاب حياة الألفاظ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

شأن الاكاديمية قلب الألفاظ المصطلح عليها واحتقارها ، وانما مهمتها المحافظة على المصطلحات الكثيرة الدلالة . وقد أضاف الكاتب الى كلامه : ان من الواجب الاقتداء بالرب ومولبير في المسامحة والاستئناس بالمصطلحات المستفيضة في طبقات الشعب ثم ختم مقاله بما يلي :

« اللغة التي لا يزيد غناها قليلاً في كل يوم تفقر وتنضب وقد كان كتابنا في عصر التجديد لا يجهلون ذلك فكانوا يفتشون عن أسلوب فيه حياة وخفة وله طعم ولون ويقتبسون استعاراتهم عن مصطلحات الصيادين وعن كلام امراء البحر وتعابير اصحاب المطابع فكانوا يجدون انه من الضروري ان ينشأ على الجذع اللغوي القديم طعم على شرط ان يكون هذا الطعم سهلاً دالاً على شيء قد ولده الاصطلاح ، فلم لا نحو نحوهم ؟

هذه حجج المحافظين والمجددين فلننظر في اعمال الحزبين فاذا عمل حزب من الحزبين عمله على حدة وأعرض عن الحزب الآخر فما ذا يحدث .

اذا انحصرت اللغة في ناحية واحدة سكنت حركتها ونضب معينها ولا ريب في ان الشعوب التي ليس لحضارتها نبديل تستطيع ان تحافظ على لغتها على وجه الدهر من دون ان يمس هذه اللغة شيء فاذا كان الفكر ثابتاً لا يتغير فاللفظ الذي يدل على هذا الفكر يثبت ولا يتغير ولكن اذا بلغ الحرص على التقاليد مبلغاً يمنع اللغة عن تتبع مذاهب الافكار والمعاني واستحكم التناقض بين افكار الامة وبين القوالب التي تفرغ فيها هذه الافكار نفدت مادة اللغة فكلّت وهلكت ، واليكم مثلاً شهيراً في اللغة اللاتينية المدرسية اي لغة الكتاب الرومانيين وطبقات الناس العالية فان هذه اللغة امتنعت عن تتبع اللغة العامية في نموها وتشددت في المحافظة على أسلوب مقدس ، وفي آخر الامبراطورية هلكت وتركت المجال للغة العامية الحية القوية التي انفجرت من ينابيعها لغات شتى ولهجات مختلفة مستعدة للاستيلاء على الميراث الذي خلفته اللغة الفصحى .

واذا عمل الحزب الذي يذهب باللغة مذهباً جديداً عمله على حدة دون الاستعانة بمذهب المحافظين فان اللغة تقذف يومئذ مقاذف مختلفة فتتحول سريعاً فمرة تتعاقب عليها عدة بطون فتصل الى حالة كثيراً ما تختلف عن الحالة السالفة حتى تكاد تكون لغة جديدة وأحياناً تتشعب الى طائفة من اللغات وهذه اللغات تتشعب ايضاً الى ما لا حد

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

له فقد قيل ان في جملة اللغات المتوحشة بطناً من الناس يشهد لغات تولد ثم تموت لتولد على شكل آخر الا ان هذا التغيير المستمر قد جاوز الحد حتى أصبح مخالفاً لاغراض اللغة وغايتها وأضاع على اللغة قسماً من فائدتها ومنفعتها طالما ان في بعض لغات المتوحشين لا يفهم الشيوخ معاني كلام الأحداث فان في هذا الامر شيئاً غير طبيعي يشبه في علم اللغات عجائب المخلوقات في علم التاريخ الطبيعي . ثم ما هو السبب في هذا التطور الذي لا نهاية له ، ان هو جهل المتوحشين الذين يتكلمون بهذه اللغات وضعف عقولهم لان اللغة تتأيد بالحضارة[1] .

بسطت لكم على سبيل الايجاز امثالاً تستدلون بها على اليسير من أطوار اللغة والشعر ومنها يتضح لكم ان الاسلام جاء بالفاظ لا عهد للجاهلية بها وان الشعر كان يصبغ بصباغ خاص على حسب ما يقتضيه روح العصر فلم يخل عصر من عصورنا من آثار التجديد فان للطبيعة وللاجتماع عوامل لا مندوحة لها عن ان تعمل في الأدب ومادته واذا كان للانتخاب الطبيعي وللتناحر على الحياة آثار في عالم المخلوقات الحية فان عالم الافكار وصورها لا يستطيع ان ينسلخ عن هذه الآثار فلسنا نعجب اذا قلت لكم من ان يكون التجديد انما هو روح العصر فقد وصلت الينا آثار لغات الغرب ووقفنا على هذه الآثار وقابلنا بين اساليب البحث في ادبنا وبين اساليب البحث في ادب الغرب فأدركنا نقصنا وعملنا على تتميم هذا النقص طالما انا قدرنا على الكمال ليس في هذا غضاضة علينا فان أدبنا بفضل الاساليب الحديثة في البحث والتنقيب سينكشف لنا الغطاء عن كثير من محاسنه فنذوق منها ما لم نذق وانما الشأن في مجامع هذه الامور ان نحافظ على روح لغتنا وعلى عبقريتها وأريد بهذه المحافظة ان تكون العربية لغتنا في بحثنا وتنقيبنا دون ان تفسدها العجمة ، أفكان الجاحظ من المولعين بالتجديد ، أحافظ في صور افكاره على عبقرية اللغة وعلى روحها .

هذا ما نسعى في الوصول الى معرفته في سنتنا هذه .

دمشق : في ٢٩ تشرين الثاني ١٩٣٠

(١) رأي الاستاذ ( دارمستتر ) صاحب كتاب حياة الالفاظ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net